الخيل في الفنون التشكيلية

بقلم الدكتور علي سعد

« الخيل معقود في نواصيها الخير الى يوم القيامة »

حديث شريف

•

ليس في مملكة الحيوان، نوع يتداخل تاريخه مع تاريخ الانسان كالجواد. فهو يكاد يكون النوع الحيواني الوحيد الذي لا يُعرف الا في الحالة الاليفة. وان بقاء بعض الافراد الآبدة منه ، في بعض المجاهل من اواسط آسيا ، (هذا البقاء الذي اصبح موضع شك ، الآن) لا ينفي هذه الحقيقة ، التي اوجزها العالم الفرنسي «بوفون» بقوله: «الجواد ابدع اكتشافات الانسان».

فاننا عندما نعود بالفكر الى فجر الحضارة ، نجد ان من العسير ان نفصل بين حياة هذا الحيوان والعمران الانساني . ومنذ اطلت الخيل على التاريخ البشري ، منذ ما يقارب الاربعين قرناً ، نجدها لا تحيا الا في ظل الانسان . وهي لم تكن فقط للانسان المطية التي تتفرد «وتشاطره حروبه وامجاده » كما يقول بلوتارك ، وانما ايضاً الرفيق الامين الذي يشاركه متاعب العيش ومباهجها ويعينه في كره وفره ، وطراده. انها كانت رزقاً للانسان ووسيلة لكسب الرزق .

ولسنا نخشى الاتهام بالمغالاة اذا قلنا ان ظهور الخيل وترويضها لخدمة الانسان كانا من العوامل الحاسمة في تسيير التاريخ القديم . فان قيام الكثير من الممالك القديمة كان رهناً بمدى ارتباط شعوبها للخيول السريعة الخفيفة او بمدى تحسينها لوسائل استخدامها .

ان الجواد يبدو في كل صفحة من التاريخ، وفي كل لفتة من اساطير الشعوب وليس من عرس او مأتم ، وليس من حدث هام في حياة الانسان يخلو من الجواد . وكم من معركة قرر مصيرها وجوده وسرعته . وان الكلمة التي

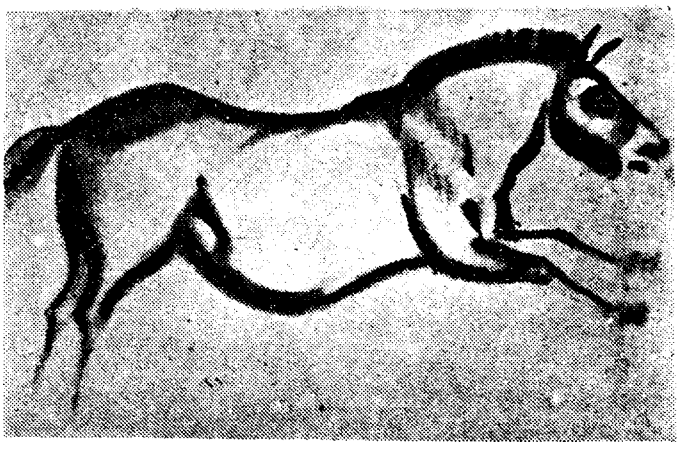

نقش ناتيء وملون . من صنع انسان ما قبل التاريخ اكتشف في احدى مغاور الدوردوني بفرنسا .

اطلقها احد غزاة العالم الجديد عندما قال : « اننا مدينون بنصرنا الى الجواد بعدالله» ، تصح على الكثير من فتوحات الانسانية في طريقها نحو التقدم.

وان من الطبيعي ان يؤدي هذا الارتباط الحميم بين الجواد والانسان الى ان يفرد الانسان للخيل حيزاً واسعاً من العالم الفني الذي حاول ان يعكس فيه المرئيات التي تحيط به .

وقد ظهر الجواد في مختلف الفنون الانسانية منذ العصور البدائية ، وهو لم ينفك عن هذا الظهور حتى يومنا هذا ، على الرغم من ان الآلة بدأت تطرده من صميم حياتنا .

لقد ظهر الفرس في الفنون الانسانية منذ مولد الاحساس الفني عند الانسان . فعلى جدران المغاور التي كان يعيش فيها جدودنا الاوائل ، نرى صور الخيل منقوشة بصورة واضحة تثير الاعجاب . وان اقدم هذه النقوش تمثل الجواد طليقاً ، ففي تلك العهود السحيقة ، (التي تعود الى حوالى خمسين الف سنة) لم يكن الجواد قد رُوّض بعد ، ولا استطاع الانسان تدجينه . وكل ما كان يفيد منه الانسان هو لحمه الذي كان يعينه على سد جوعه . وتشهد على هذه القيمة الغذائية للجواد في تلك العهود اكداس عظام الخيل التي اكتشفت حول المعسكرات الانسانية البدائية .

والمدهش في هذه النقوش والتماثيل الاولى التي تصور الجواد الآبد انها كانت على جانب كبير من الوضوح والدقة في الخطوط والمعرفة بالمقاييس الصحيحة لمختلف اجزاء جسم الحيوان . لقد كان ذلك التعبير الفني البدائي يتسم بطابع من الواقعية ومن قوة الملاحظة خسره الكثير من فناني العصور المتحضرة .

وان هذه الآثار الاولى التي اكتشفت في اوروبا الغربية تظهر ان الجواد الذي عرفه انسان الكهوف كان يشبه الى حد كبير عوق الخيول الآبدة التي كانت تعيش الى عهد قريب في منغوليا ، مما يؤكد الاعتقاد ان منشأ الخيل كان في اواسط آسيا . ويجدر بنا التقريب بين هذا الرأي والرأي

٤٥

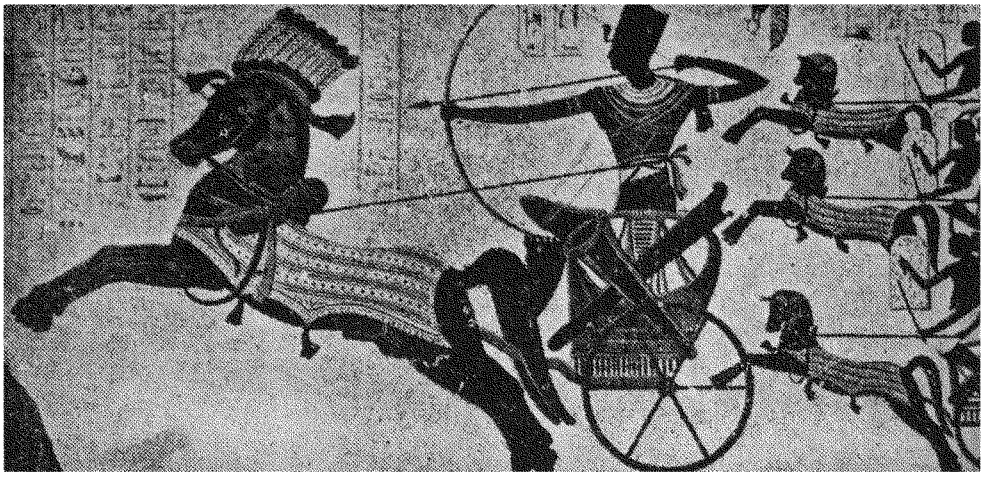

رعمسيس الثاني على مركبته الحربية . نقش ملون اكتشف في هيكل فرعوني بأبي سنبل

الآخر الذي يقـــول بان العرق البشري الذي كان يسود في العصر الحجري الاول قد تحدر ايضاً من اواسط آسيا .

وعندما ندخل في العصور التاريخية الاولى ، نجـــد ان الخيل تلعب دوراً كبيراً في حياة الشعوب التي بنت اقـــدم الحضارات .

وان اقدم الآثار الفنية التي تمثل استعمال الخيل في هـذه الحضارة ، هي الآثار البابليـة والاشورية والمصرية . وكل هذه الآثار تدل على ان استعمال الخيل في جر عربات القتـال قد سبق استعمالها لركوب الفرسان .

وقد ابـــدع الاشوريون في تصوير الجواد المربوط الى العربات ، وبوجه عام في فن تمثيل الحيوانات ، وحسبنا ان نذكر النقوش والتماثيل الرائعـة المكتشفة في « خراس اباد » وفي « كوينجوجيك » التي تمثل مناظر القنص والقتال ، فتعبّر عن القسوة والعنف بـــين المتنازلين وعن دقق الحركة في الكائنات الحية ، بما لا يضاهى واقعية ودقة ملاحظة .

ومنها النقش البارز المحفوظ في المتحف البريطاني والذي يمثل الملك سنحاريب على رأس جيشه . ويبدو فيه المـــلك معتلياً عربة ذات عجلتين عاليتين ، يقودها سائقان اجردان ، معقوصا الذيل .

ومنها نقش آخر يمثل منظر قنص اسود . فان الجياد سواء منها التي تجر العربة الملكية او التي يعتليها الفرسان ، تبـــدو وهي تقتحم صفوف الاسود غير هيابة ولا وجلة ، فلا تخفف شيئاً من حركة اندفاعها الرائعة في تناسقها .

واذا كنا نلاحظ بعض الرتابة والتكرار في طراز الركض الذي تبدو عليه الخيـــل في الآثار الاشورية ، فانه لا يسعنا الا ان ندهش لبراعة الفنانين الاشوريـــين في اخراج الصورة على نوع من البناء الهندسي وفي تصوير مختلف اوضـــاع الاشخاص والحيوانات . ففي منظر قنص الاسود نرى الاسود في اوضاعها المختلفـة التي يفرضها منطق المعركة (فمنها المتحفز ومنها الواثب في الهواء ومنهـا الملقى عـــلى ظهره او بطنه او جنبه ، بعد ان صرعته النبال) وان تأمل هذه اللوحة يدل على ان الاشوريين لم يكونوا يجهلون تناسب الابعاد ، وهو امر يحمـــل على الاعجاب بآثار يرجع تاريخها الى خمسة وثلاثين قرناً . فان الخيول والفرسان التي تواكب العربة الملكية من بعيد ، تبدو اصغر بكثير من الخيل التي تجر العربة الملكية والتي تحتـــل المكان البارز من اللوحة ، مما يعطي شعوراً كاملاً بالمدى الذي يفصل بين الفريقين .

★

اما المصريون فقد خلفوا لنا رسوماً ونقوشاً وتماثيـل لا تحصى ، حاولوا ان يخلدوا فيها الجياد مع آلهتهم وفراعنتهم ، وكثير من هذه الرسوم كان يقف على التخوم بين الكتابة والزينة والتعبير الفني عن امجـــاد التاريخ المصري . وتظهر اكثر الجياد في النقوش المصرية في منـــاظر المعـارك حيث تجر عربات المحاربين ، وقلمـــا تبدو على

فيدياس : افريز هيكل البارثينون

٤٦

ظهورها الفرسان .

وفي احد النقوش البارزة الملونة التي اكتشفت في معبد « ابسامبول » (ابو سنبل) الذي بناه رمسيس الثاني بين سنة ١٣٣٣ و ١٣٠٠ قبل المسيح نرى الجياد مغطاة بوشاحات من الدمقس متوجة الرأس بالريش واللجم والاعنة مضفورة باناقة . وفي « ابيدوس » حيث حفظت مناظر من معركة « قدشو » ، نرى جيشاً كاملاً يسير في هجوم لايرد والى اليسار يبدو الاسيويون على جيادهم الكاملة العدة والاعنة .

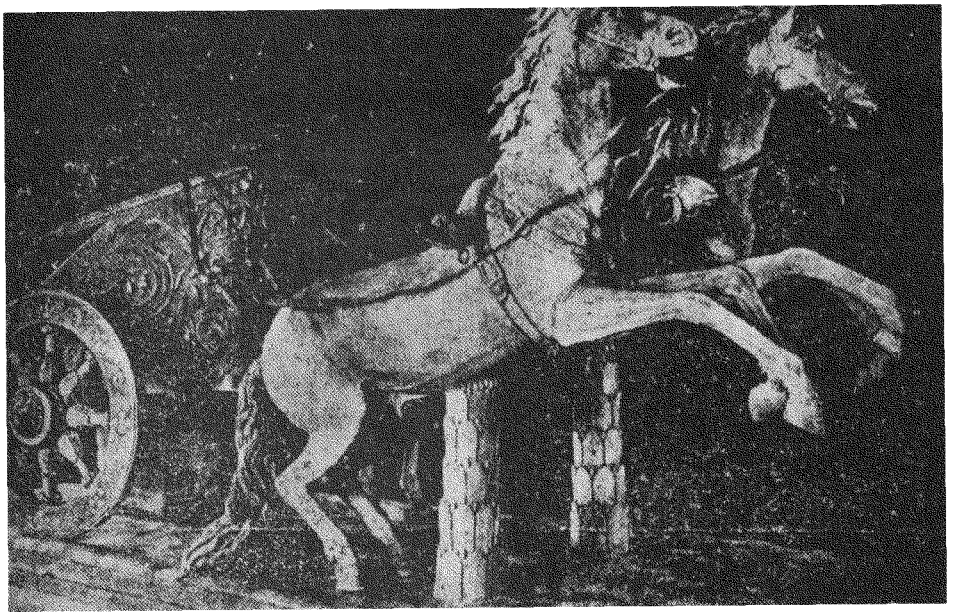

من الفن الروماني : « بيغا » أو مركبة ذات عجلتين وجياد (متحف الفاتيكان)

واذا كان الفنانون المصريون يقلون عن فناني اشور علماً بنسبة الابعاد ، فانهم قد احسنوا تصوير الجياد في حالاتها القصوى من الحركة والتوثب ، وكل جيادهم تبدو وكأنها تسبح في الفضاء ورؤوسها ملتصقة باعناقها المقوسة لفرط شد الفرسان على لجمها ، وقوائمها الامامية مقذوفة الى الامام بصورة مبالغ فيها وكأنها تبغي ان تبتلع المسافات والابعاد بوثبة واحدة .

ومثلها في الآثار الاشورية ، تبدو هذه الخيول في النقوش المصرية اقرب الى الجياد العربية التي نعرفها اليوم برأسها الصغير وجبينها المقعّر وقوائمها النحيفة واذنابها المعقوفة وان كانت الصور المصرية تبالغ في ابراز طول متونها .

ليوناردو دي فنشي : رسم تحضيري لبناء تذكاري (قصر وندسور)

واذا عرفنا ان الخيل قد دخلت الى مصر مع قبائل الهكسوس التي يحتمل مجيئها من الجزيرة العربية ، كما هو حال الشعوب التي احتلت ارض ما بين النهرين ، يصبح اقرب للمنطق ان يكون منشأ الجواد العربي الاراضي التي تشكل اليوم مجاله الاصلي في داخل الجزيرة العربية . ولا حاجة للذهاب بعيداً والقول بان النموذج العربي الشرقي قد تكوّن في اواسط آسيا ثم مر عبر اوكرانيا القوقاز وارض فارس الى آسيا الصغرى فالشام فمصر ، وان الفضل الاول يعود للقبائل الهندأوروبية وللحثيين خاصة في مولده . فقد يكون منشأ النوع الفرسي في اواسط آسيا . ولكن ليس هناك من دليل حاسم ينفي نشأة النموذج العربي للخيل في الاراضي التي ظهرت فيها الشعوب الساميّة ، اي الاراضي التي تشكل موطنه الواسع اليوم : فقد تكون ظروف المعيشة والمناخ الجاف التي خضع لها الجواد المستقدم من بعيد وفعل التدجين والتأصيل والاستخدام المستمر للركض السريع ، عوامل ادت في تحوير هذا الجواد وجعله يقترب شيئاً فشيئاً من النموذج النبيل الجميل الذي نعرفه اليوم .

اما الاستنتاج الذي يخرج به الدكتور « ليسلي شير » من اكتشاف بعض التماثيل والنقوش ليؤكد ان الحثيين كانوا اول من كوّن الجواد الشرقي فينفيه قوله « ان الملك الحثي هاتوزي الثالث الذي عاش حوالى ١٢٩٦ قبل المسيح قد طلب من ملك بابل « قادامست مانتورجيا » ان يرسل اليه خيولا فتية جياداً » .

★

واذا انتقلنا الى ارض الاغريق نجد ان من اقدم الآثار التي تمثل الخيل صورة اغريقي في عربة يجرها جوادان منقوشة على حجارات الاكروبول في مدينة ميسين حوالى سنة ١٥٠٠ قبل المسيح .

ومن المعلوم ان الاغريق كانوا يخلدون المجلين بسباق الخيول في الألعاب الاولمبية ، باقامة تماثيل من البرونز لهم ولخيولهم الظافرة . وكانت هذه التماثيل تنصب في جبل الاولمب ، وان من بقايا هذه التماثيل ، الجياد الاربعة التي تزين اليوم واجهة كاتدرائية سان مارك بالبندقية والتي تعزى الى المثال الاغريقي ليزيب ، وهي من البرونز وقد كانت مطلية بالذهب عندما قدمت هدية الى « نيرون » .

وكثيراً ما كانت النقوش والتماثيل الاغريقية تمثل الخيول يعلوها فرسان دون سرج . ويبدو ان السرج لم يعرف الا في عصور متأخرة .

والنقوش الماثلة على الافريز الشهير الذي يعلو هيكل مينرفا في البارثينون والذي يعزى الى المثال الاغريقي « فيدياس » تمثل كذلك فرساناً على خيول غير مسرجة .

ورغم ان هذه الخيول لا تملك رشاقة الخيول الظاهرة في الآثار الفرعونية ولا نبل الخيول الاشورية والحثية ، فان ازميل الفنان الكبير اضفى عليها من الحياة المنبعثة من الواقعية الصادقة في تسجيل خلجاتها وتقاطيع تكوينها في مختلف مراحل سيرها ، ما جعل منها احدى الآيات الفنية الخالدة التي طالما استلهمها الشعراء والفنانون .

لقد زاوج فيدياس بين هبة الطبيعة التي تخلق التفاصيل والسمات الفردية واللفتة الفنية التي تختصر هذه التفاصيل وتؤلف النموذج ، فابدع خيولاً تجمع الى النمطية الحياة الدائمة ، وحقق المعجزة التي لا يزال الفنانون يتحرقون الى تحقيقها الا وهي الجمع بين حقيقة الواقع وجمال الخيال والمثال .

★

اما الرومان فقد صنعوا العديد من التماثيل للخيل والفرسان . ولكن قليلة هي الآثار التي تبلغ درجة الكمال التي بلغها الفن الاغريقي .

واشهر هذه الآثار الرومانية التمثال الذي اقيم في روما مصوراً الامبراطور مارك اوريليوس على جواده ، وتماثيل « مونت كافالو » (هضبة الخيل) التي تزين ساحة الكيرنال ، والتي تظهر البطلين « كاستور » و « بوليكوس » وهما يروضان جوادين مندفعين بوحشية ، والاسطورة تزعم ان هذين البطلين ، (وهما ولدا جوبيتر من ليدا) قد حاربا في صفوف الرومانيين بمعركة بحيرة « ريجيليو » واعلنا انتصار هؤلاء على ساحة روما في اليوم نفسه فأقيم لهما هذا التمثال في الساحة التي ظهرا فيها .

والهند القديمة ، كغيرها من الممالك الشرقية ، قد كرست للخيل الكثير من روائعها الفنية . وقد يكون اروع ما ابدعه الانسان لتمجيد الخيل ، معبد « فيشنو » المشيد في « سيرنغهام » ، وسط جزيرة « كافري » ، فهذا المعبد ، الفريد في العالم ، يكاد يكون آية عبادة لقوة الحياة المتجسدة بالجواد .

فهو يشتمل على رواق يبلغ طوله ١٥٠ متراً وعرضه ٤٤ متراً ويحيط به من الجانبين ما يقارب الف عمود : وعلى قاعدة كل عمود يقف تمثال جبار لحصان يتفجر بحركة يبدو معها كأنه يبث الحياة في العمود الضخم الذي ينطلق منه اكثر مما يستند اليه .

وان معاني الجلال والرحابة والقوة والتدفق الحي المنبعثة من منظر هذا الصف المزدوج اللامتناهي من الخيول الهائلة تفوق كل ما حقق في العالم لتمجيد هذه الحيوانات .

وليس بمستغرب ان تفوق الهند غيرها من البلدان في هذا العمل . فاذا كانت الخيل لا تحمل للشعوب الاخرى غير قيمة غذائية او عسكرية او اقتصادية ، فانها ، في نظر الشعب الهندي تحمل ، الى جانب هذه القيم المادية قيمة روحية كبيرة : فالخيل تدخل في صميم المعتقدات الدينية للشعب الهندي وتلعب دوراً هاماً في تاريخه الروحي . فان جياد الآلهة التي تتجسد فيها السماء والشمس والضياء ، قد اشركت معها في التصورات الشعبية وفي السير والمعتقدات الى حد انها انتهت بالاختلاط معها ، ونخص بالذكر منها جوادي الاله « اندرا » ، اقوى الآلهة ، والاله السماء . انهما يقودان مركبته الذهبية ، كما يقودان الشمس وفرسان السماء والارض الهندية ، باسرع من الخاطر . انهما شعاعا الشمس . وهما جنحان ، يضيئان السماء بعرفيهما المشعين بمثل الوان الطاووس .

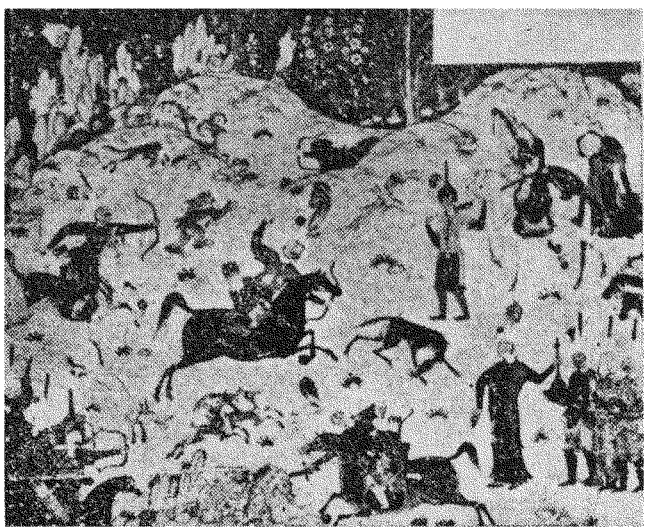

منظر قنص : منمنمة فارسية . على حواشي ديوان مير علي شيرنوا (دار الكتب بباريس)

★

واذا انتقلنا الى الطرف الاقصى من آسيا ، نرى ان الصين لا تقل عن الشعوب التي ذكرنا ، غنى بالآثار الفنية وبالاساطير الجميلة التي تمثل الجواد ومجده . والى جانب الخزف الذي كان المادة الاكثر شيوعاً لصنع التماثيل الصغيرة كانت المعادن الثمينة والحجارة الكريمة تستخدم في تشخيص الخيول المختلفة ، تشخيصاً يدهش بواقعيته . ويمكننا ان نذكر من بين هذه التحف مجمرة لحرق البخور مصنوعة من البرونز المنزل بالفضة والذهب على شكل جواد مجنح يجري باندفاع جياش . وربما كان الخزف الصيني خير مجال يتيح لنا الاطلاع على الترف الذي كان عليه اقتناء الخيول في القصور الامبراطورية .

وفي متحف اللوفر يوجد اناء صيني من صنع كينغ تشين يمثل سباقاً طريفاً للخيول في ميدان الامبراطور . ووجه الطرافة في هذا السباق انه يجري بين زوجات الامبراطور . وتظهر الفارسات مندفعة على صهوات الخيول المطلقة الاعنة

٤٨

على الحلبة الدائرة مع الاناء المستدير . وتبدو احداهن وقد تناثر شعرها في الهواء ووضعت سوطها بين اسنانها ، لتتمكن من لمه باليد التي تحررت من السوط ، فلاحت صورة ناطقة للفتنة المهددة بجنون المغامرة . وتحمل الجميع حركة استطاع الفنان، تأديتها بالصدق الذي يوهم بالحقيقة الواقعية . هذا الى رونق الالوان التي تجمع في نغمة واحدة حوافر الجيـــاد واظافر الحسان .

ولا نحب ان نترك الصين قبـل ان نشير الى الاسطورة الصينية التي تربط بين مولد صناعة الحرير والتعلق بالخيـل ؛ فهي تزعم ان صبية ارادت ان تتزوج من حصان ابيض فساء ذلك اباها فقتلها . وبعد زمن ،وجد الجيران الصبية ملتفة بجلد حصـان يتدلى من شجرة. وفيما هم ينظرون اليها،تحولت الى دودة قز ونسجت شرنقة كبيرة اخفت نفسها طيها .

وعندما جاءوا لقطف الشرنقة ، طلعت منها صبية نسجت من حريرها نسيجاً نادراً ذهبت بـه الى السوق وباعته .

اما الفنانون اليابانيون ، فقد كان الجواد من المواضيع المفضلة لفنهم على الرغم من انه لم يلعب إلا دوراً ثانوياً في تاريخ حروبهم . ومـــا احلى الاسطورة اليابانية التي تروي ان الرسام « كاناوكا » قد رسم خيولاً بلغ من اتسامها بالحياة انها كانت عند هبوط الليل ، تترك الحجاب الذي كانت تزينه وتذهب لترعى اعشاب الحديقة ، حتى فطن شخص ذو دهاء الى اضافة حبل الى الصورة فمنع ، بهذه الحيـلة ، الخيول المتمردة من القيام بنزهتها الليلية .

وتمثل بعض الرسوم اليابانية معارك بحرية نرى فيهـــا رجالا مدرعين ينزلون من سفنهم للقتال على صهوات خيول فوق اللجج ، بينما تنتظر اميرة ، متكئة بدلال على مقـــدم السفينة التي نزل منها الفرسان ، نتيجة المبارزة لتعطي نفسها للظافر .

★

اما التاريخ الاسلامي فقد خلا في عصوره الاولى من تمثيل الجواد في الفنون التشكيلية بسبب تحريم القرآن لتصوير الكائنات الحية . ويرى البحّاثة « جاستون ميجون » ان هذا التحريم، الذي لم يكن حدثاً اسلامياً، وانما ظاهرة غالبة عند الساميين عادة ، لم يؤثر الا على العرب السنيين وانه لم يمنع ازدهار الرسم والنقش عند المسلمين من غير العرب ، وعند الشيعة بصورة عامة. ولكن مما ينفيه اكتشاف آثار عديدة غنية بالتماثيل والنقوش في اليمن مما يدل على ازدهار حضارة عريقة ويعتقد البعض انها ام الحضارة الفرعونية ؛ وكذلك آثار الاشوريين وهم من الساميين تنفي ذلك الرأي .

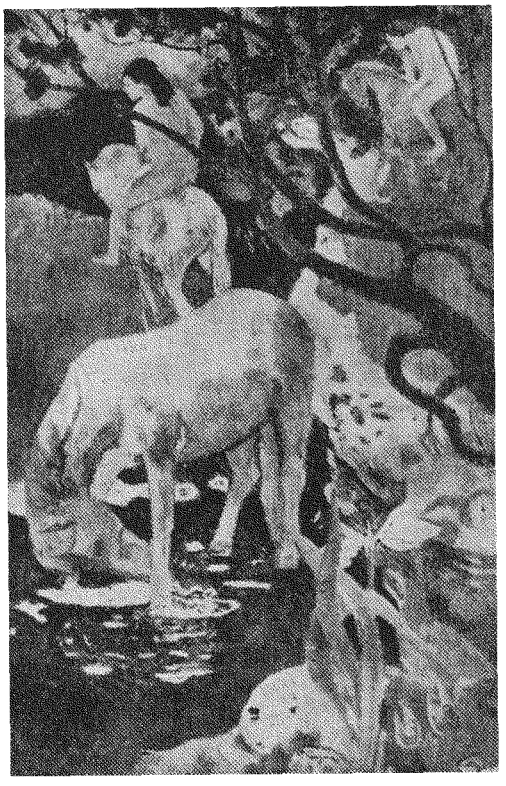

جوجان : الجواد الابيض

وان أقدم ما نعرفه من الآثار الاســـلامية في تمثيل الخيـــل والحيوانات الآبدة يعود الى عهد الفاطميين . ومن هذه الآثار النقوش التي نراها على الباب الخشبي الذي وجد في بيمارستان السلطان ابن قلاوون والذي نقل في عهد هذا السلطان من القصر الغربي الذى بدأ بناءه العزيز بالله الفاطمي بين سنة ٩٧٥ وسنة ٩٩٦. ومن اجمل هذه النقوش الخشبية قطعة تمثل فارساً يغير على فرسه باسرع ما يمكن ويتلفت الى الخلف لاطـلاق السهم من قوسه .

ومن العهد نفسه، نجد صندوقاً من العاج يحمل اسم عبد الملك بن المنصور (سنة ١٠٠٥) وتغطي كل جوانبه نقوش بارزة عديدة تمثل مناظر عراك وقنص مختلفة . واحد هذه المناظر يسجل نزالاً بين فارسين مدججين بالسلاح .

ومن العهد الفاطمي ايضاً ، نذكر مكحلة من البرونز ، صنعت على صورة جواد لا يفرق كثيراً عن الغزال ، وقطعة من حوض ماء ، في صورة جواد . وهذه الآثار المرتبطـة بالاستعمال المنزلي تتسم بطابع البساطة . وقد ادخل الفنانون على هذه الاشكال التحويرات التي تفرضها عليهم محاولتهم لتكييفها مع اشكال الادوات المنزلية التي كانوا يرغبون في صنعها .

ويجب ان نقرب من هذه الآثار الاواني النحاسية المحلاة

٤٩

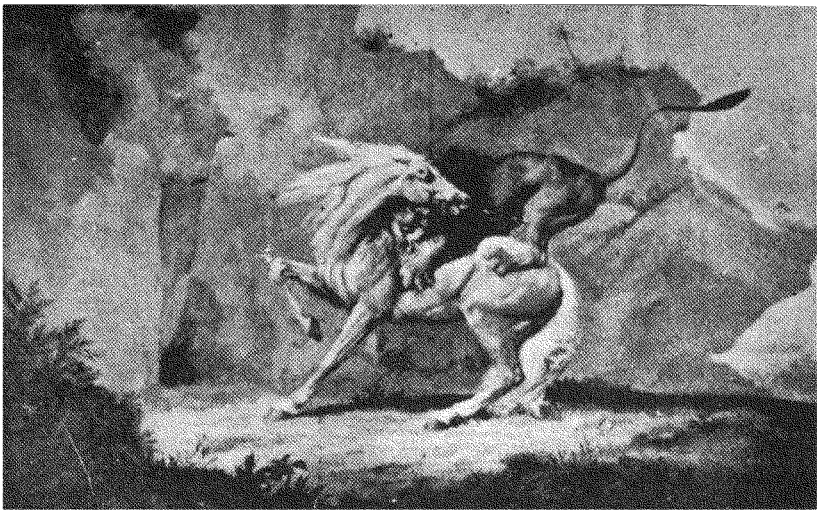

ستابر : اسد يهاجم فرساً

•

بالنقوش الممثلة للحيوانات وخاصة الخيل ، واغلبها يعود اما الى المقاطعات الشمالية والشرقية (الفرات ، الموصل ، ديار بكر وارمينيا) ويغلب عليها الطابع الايراني ، واما الى الاراضي الغربية (الشام ومصر) وهي ترجع الى عهد الايوبيين خاصة .

ولكن المجال الذي يطل منه الاحساس الفني على اروع صوره عند الشعوب التي تبنت الاسلام ، هو فن التذهيب ، اي فن تزيين المخطوطات بالصور الملونة الدقيقة الصنع .

ويظهر ان هذا الفن التصويري قد نشأ في البدء لتزيين المصاحف والكتب الدينية ، ثم امتد الى الكتب الاخرى ، وخاصة الكتب العلمية المترجمة عن اليونانية والهندية والفارسية والدواوين الشعرية والسير والمقامات وغيرها . ومن اقدم الكتب العربية التي ظهرت عليها التذهيبات الممثلة للحيوانات ، كتاب « كليلة ودمنة » و « مقامات الحريري » وكتاب « عجائب المخلوقات » للقزويني .

وتجدر بنا الاشارة هنا الى نسخة قديمة من مقامات الحريري توجد في دار الكتب الوطنية بباريس ، وهي تشتمل على صور لطيفة في كثير من الصفحات . ومنها منظر يمثل قوماً على خيولهم وبغالهم ، يحتفلون بعرس رافعين بيارق ومزامير طويلة ينفخون فيها . واننا نرى العروس مستقلة هودجاً محاطاً بهجانة على ابلهم . هذه المناظر الحقيقية المنتزعة من الحياة العربية تدل على مدى ملاحظة الفنان لحركات الحيوانات ، واوضاع الاشخاص وهي تتسم بالصدق والواقعية .

واذا شئنا ان نلتمس صور الخيل والناس في أزهى اشكالها والوانها ، عند الشعوب الاسلامية ، يتحتم ان ننتقل الى المدارس الفنية التي نشأت في تركستان وفارس في عهد المغول بعد القرن الثالث عشر للميلاد . ومن هذه الآثار مخطوطة لتاريخ الطبري ، في ترجمته الفارسية وتملأ حواشيه مناظر معارك دامية وفتوحات تتناوب مع مناظر اللهو ومجالس الشراب . وهذه الصور تتسم بالبساطة في الخطوط وبالفقر في الالوان . ومنها أيضاً مخطوطة لكتاب « جامع التواريخ » لرشيد الدين ، مزينة برسوم من صنع رجل من بغداد ؛ وترجع الى سنة ١٣١٤ ميلادية . والكتاب يتضمن وقائع فيها مزيج عجيب مستوحى من تاريخ بوذا والنبي محمد .

والصور التي تزينها تحمل طابعاً شخصياً فريداً في الاخراج وفي توزيع الاشخاص وبهاء المنظر هي ، الى ذلك خلو من كل تخذلق ومن الالوان الزاهية ، مرسومة بالوان قاسية ، يغلب عليها الرمادي . واللوحات التي تمثل الطبيعة على جانب كبير من جلال الزخرفة . ونرى في وسط هذه اللوحات محاربين مندفعين في هجمات سريعة مشرعين رماحهم ومدرعين بملاءات براقة .

ولا نحب ان نترك هذه المدرسة التي نشأت في ظل المغول قبل الاشارة الى مخطوطة قديمة للمحمة الشاهنامة للفردوسي ، زينت بالرسوم حوالي سنة ١٣٤٠ وهي ملآى باللوحات الكبيرة التي تمثل مآثر ابطال فارس ومعاركهم ، واحداثهم تجري داخل اطار رائع من المناظر الطبيعية ، واننا نخص بالذكر صفحة تمثل هجوم خيالة وتتميز برحابة النظرة ودقة الاداء ومدى الحركة التي تدفع الخيل والفرسان مما يعطيها الطابع المحلي الذي يليق بالنص ، وفي مرحلة تالية نجد المدرسة التي نشأت في اوائل القرن السادس عشر حول الرسام الكبير كمال الدين بهزاد الذي طبع فن التصوير الفارسي بشخصيته الفذة . ومن آثاره التي تعنينا هنا صوره التي زين بها كتاب سفرنامه (تاريخ تيمورلنك) لشرف الدين ، وفيه نرى صور معارك بين خيالة تثير الاعجاب بما تتفرد به من وضوح في التأليف واحساس بالحركة والحياة وعلم بالقيم والابعاد .

وقد صور بهزاد ايضاً حواشي كتاب « البستان » لسعدي . وهذا الكتاب يشتمل ، في جملة منمنماته الرائعة ، على لوحة تمثل افراساً في المرعى . لو وضعت بجانب لوحة « الجواد الابيض » لجوجان ، لما وجدنا اي فرق في اشكال الجياد واوضاعها ولفتاتها الممثلة على اللوحتين . وهذه الصور تتميز بدقة الملاحظة والتعبير الصادق عن الاوضاع والحركات وبالقدرة النادرة على اداء المناظر ذات الاشخاص العديدين بحيث لا تقضي وحدة الموضوع على شخصيات الافراد .

ونذكر من هذه الحقبة مصوراً آخر لعب دوراً كبيراً في تطوير الفن الفارسي هو السلطان محمد .

ومن آثاره التي تعنينا هنا ، غلاف كتاب ، يحمل صورة صنعت بالدهان المصمغ ، تمثل على ابعاد مختلفة مناظر صيد وقنص .

وفي كل من هذه المناظر نرى الصيادين على ظهور جيادهم يتبعهم الخدم لحمل البزاة او لتنقير الطرائد ، ولا يعيب هذه اللوحات الا خلوها من النظرة الواقعية في التأليف العام بين الاشخاص . ولكن الخيول تتميز بالملاحة والرشاقة والفن في العدة المزركشة التي تعلوها ، وبالتنوع في اوضاع الرأس والقوائم وفقاً لمقتضيات الحدث الذي سجلت فيه .

وفي هذه الحقبة (القرنين السادس عشر والسابع عشر بعد الميلاد) نجد العبقرية التزينية عند الفنانين الفرس تتجلى في ابهى صيغها ، في مجموعات السجاد التي تمثل مناظر الصيد وعراك الحيوانات . واشهر هذه السجادات ، واجلها ، السجادة المسماة « الصيد » والمنسوجة من الفضة والذهب والمحفوظة اليوم في قصر شونبرن بالنمسا . ففي وسط اطار رفيع يقوم

٥٠

مرج مغطى بصيادين يرشقون النبال وبفوارس يغيرون على خيولهم الكريمة ويطردون بقسيهم ورماحهم الحمر والخنازير والاغنام البرية .

وهناك سجادة اخرى من الصوف ، تحمل في وسطها صورة حقل مغطى بفوارس في يوم الصيد ويحيط به نطاق مزين بصورة ارواح مجنحة ووحوش في اوضاع هجومية .

وننتهز هذه الفرصة لنشير الى ان الصفة الغالبة على الخيل التي صورها الفنانون الايرانيون هي الهيف والنبل المتمثلان بقوائم نحيفة وعنق مستطيل ، متناسق التقوس ، وبرأس مبالغ في صغره ونحافة طرفة وعينين يشعان ذكاء وحدة ، هذا الى جسد عبل الصدر والردف ، قصر المتن مما يعطي معنى القوة الى جانب الاصالة والرشاقة .

***

والآن ، لو انتقلنا الى عصر الانبعاث في اوروبا ، لرأينا ازدهاراً موازياً في الفنون الممثلة للجواد وخاصة في النحت والتصوير .

والتمثال الذي اقامه اندريا « فيروكيو » للكوندوتييري« كوليون» يعتبر احدى آيات التماثيل الفرنسية . وفي كنيستي زانيبولو وفراري جمعت القبور الفخمة التي عرفتها البندقية . وفوق بعض هذه القبور التي تختصر تاريخ النحت في هذه المدينة ، يرتفع احياناً تمثال جواد يحمل انساناً ملتفاً بدرعه . وهكذا تعود الى ساحل الادرياتيك اسطورة بعث البطل على جواده ، مخلداً في صورة الفارس الذي لا يلقي السلاح .

والى جانب التماثيل ، خلف عهد الانبعاث لنا صوراً كثيرة للخيل . ومنها صور اوتشيللو التي تصور بسذاجة جياداً ضخمة تعطينا فكرة عن النموذج الشمالي للخيل التي كانت منتشرة آنذاك في اوروبا . ومنها صور بنوزو جوزولي المفعمة بالطمأنينة والقوة ، وصور الجياد بريشة « بيزانيللو » الذي كان يتقن التعبير عن رعشة الحياة في الخيل العاملة .

وبوجه عام كانت هذه الآثار الايطالية لا تمثل الا صورة كاريكاتورية بعيدة عن حقيقة الجواد في الواقع . ولانستثني منها الا الرسوم التي خلفها ليونارد و دي فنشي . فان هذا الفنان العبقري الذي كان فارساً خبيراً بالخيل ، قد بلغ من تعلقه بها ومن معرفته بشؤونها انه الف كتاباً خاصاً عن تشريح الخيل وتكوينها . وهذه الخبرة قد اظهرها في مجموعة رسومه ،وخاصة الرسوم الخاطفة التي كان يهيىء بها تصميم التمثال الضخم الذي كان ينوي اقامته الأمير فرنشيسكو سفورزا والرسوم التي كان يعد فيها لوحته عن معركة « انجياري » . وهذه الرسوم تظهر ادراكاً عميقاً لحركة الخيل في ركضها واحضارها مما يضع دي‌فنشي في خط«فيدياس» وكبار الفنانين الذين‌التقطوا حقيقة الحيوان المتحرك قبل مولد السينما .

ولرفائيل لوحة باقية في احدى قاعات الفاتيكان تمثل « طرد هليودور من الهيكل »ويبدو ان الفنان اعطى الدور الاول فيها لجواد الملك .وبين الرسامين الذين صوروا الخيل علينا ان نفرد مكاناً خاصاً للرسام الفلامنكي روبنس فهو لم يكتف بان وضع في صور هذه المخلوقات كل موارد عبقريته وانما جعل منها اكثر الاحيان الموضوع الاساسي لتآليفه الرحبة .

ولكن بعد القرن السادس عشر بدأت الخيول الغليظة المنتمية الى النموذج الشمالي والتي كانت شائعة في اوروبا بالتراجع امام غزو الخيول العربية . وهذا الغزو الذي بدأ منذ الحروب الصليبية قد بلغ اوجه في القرن السابع عشر عندما شرعت بعض البلدان الاوروبية تتبع سياسة ثابتة باستيراد الخيول العربية الاصيلة لتحسين خيولها . مما ادى الى قيام العرق الانكليزي الاصيل والعروق الاخرى الخفيفة الرشيقة . وقد ساعد على انتشار هذه الخيول الكريمة تخلي الفرسان عن عادة لبس الدروع الثقيلة في الحروب واقامة سباقات للخيول منتظمة في اكثر المدن الكبيرة .

ويعطينا الرسام الاسباني «جويا» ، الى جانب الصور الرسمية التي تمثل جياداً اكثر نبلا واصالة من الملوك الراكبين ظهورها،صوراً تمثل‌دراسات عن عالم مصارعة الثيران وتظهر الجياد الاندلسية في منافستها المتفرجات الحسان ، بخلاوة اللفتات وخفة الحركات ورشاقتها .

وبعد الهبوط‌الطارىء‌الذي اصاب‌التعلق بالخيل في ايام الثورة‌الافرنسية التي شن حروبها متطوعون لم يكونوا يملكون دائماً ثمن الجواد ، هذا الحيوان – السلاح الذي كان وقفاً على النبلاء ، عادت الخيل الى احتلال مكانتها السابقة مع الحروب النابليونية ، واعتماد نابليون على الخيالة السريعة لنجاح حملاته الصاعقة . وان اجمل اللوحات التي خلدت العهد النابليوني‌هي تلك التي تحتل فيها الخيل المكان البارز. وفي ذلك العهد ظهر اكبرمصوري الخيل « جيريكو » و « جرو » و « ديلاكروا » و « فيرنيه » .

وقد عرفت العصور الحديثة رسامين كثيرين اهتموا بتصوير الجواد .

ومنهم الانكليزي «ستابز» Stubbs الذي يعتبر اول مرحلة في ارتفاع الفن الانكليزي لتمثيل الحيوانات وهو معروف بكتاب وضعه عن«تشريح الخيل » ونذكر له لوحة تمثل « هجوم اسد على جواد » ، وتذكر بحادثة واقعية رآها الرسام في مراكش . وتمتاز اللوحة بنبض نادر بالحركة وبمعاني الرعب والسرعة وانتفاض الحياة التي تأبى ان تركع امام الموت .

ومنهم « ايم مورو » الذي سبق آلة التصوير في التقاط الحركات الصحيحة للجواد الراكض والذي لا يضاهى في فن تصوير الحيوان. ومن كبار الفنانين المحدثين الذين عنوا بالجواد نذكر الرسام « ديجا » الذي كرس الكثير من فنه للتعبير عن كل الحركات والرعشات التي تسيطر على عالم ميادين السباق . و « جوجان » الذي عاد من « هايتي » بصور لجياد بدائية ترعى او تشرب في اطار من الطبيعة يتسم بنداوة الارض البكر ويحمل طابعاً أثرياً ولا واقعياً من الالوان والاشكال يقربه من فنيات الفنانين الفرس . و « سورا » Seurat الذي يعطي في لوحته « السيرك » صورة لحسناء تقوم بالعاب بهلوانية على ظهر جواد يطير في الحلبة والناس من حولها مخطوفو الانفاس . وتتسم اللوحة بطابع من الدعابة والبراءة . وفيها اختصار للخطوط يذكر بالفن البدائي لانسان الكهوف وفيها رؤيا خاصة لاشكال الاشخاص والحيوان ، يجعل من هذه الكائنات الحية اشياء اقرب للماكينات . ولا عجب فاننا قد دخلنا العصر الالي . والحضارة الالية بدأت فعلها في تحوير الاشياء ومفاهيم الانسان لعلاقاته مع الحيوانات والطبيعة .

ولكن هذا الحديث يجرنا الى ميدان آخر ، ليس مباحاً لنا خوضه في هذا المجال .

علي سعد